

دور السؤال القرآني في التنمية العقائدية

الأستاذ المشرف: دكتور أسعد سلمان

الطالب: حيدر كاظم جاسم العريضي

خلاصة المقال

يتمحور بحثي الموسوم بـ ((دور السؤال القرآني في التنمية العقائدية)) حول الجدل القرآني بالسؤال المجازي وأهميته، وما يكتنفه من براهين عقلية في جميع صيغه وأقسامه المتعلقة بالاستدلال العقيدي، فقد ورد السؤال العقيدي في القرآن الكريم أكثر من ((٧٠٠)) آية -بحسب إحصائي- كان أغلبها وروداً في مجال إثبات عقيدة التوحيد وبصيغة السؤال الإنكاري، ثم يأتي السؤال التقريري بعده بالأهمية وكثرة الاستعمال، وتحت كل قسم رئيسٍ منهما تدرج عدّة معانٍ متضمّنة من خلال التداخل الدلالي الذي يُعطي السؤال معنىً أوسع وبياناً أبلغ قلّ نظيره من الأساليب الأخرى، وقد جاء تصنيفي للسؤال العقيدي بما ينسجم وروح الدعوة القرآنية في الحوار مع المقابل، فالأسلوب الإنكاري يهدف إلى تخلية النفس من العقائد الفاسدة بهدم الأوهام ونقض المغالطات، وأمّا الأسلوب التقريري فيهدف إلى إذعان المقابل بالثوابت العقلية والمسلّمات البديهية وبناء الأصول العامة للعقيدة الإسلامية، ثم يأتي الدور التكميلي للسؤال بأسلوب الوعيد والوعد الآلهي ترهيباً من العذاب وترغيباً بالثواب لغرض هداية الضالّة الى سواء السبيل. لقد استقرّت الآيات المباركة وصنفت ما ورد منها في الاستعمال إلى ثلاثة أقسام، فالقسم الأول تناول أصل التوحيد وقد أتمّ الجدل الوارد على لسان الحقّ وأهله

بالبساطة في الطرح وإيراد الأدلة العقلية في إثبات التوحيد بدلالة أسماء الذات والصفات والعدل الإلهي ببراهين واضحة لكل ذي عقل. أما القسم الثاني فكان يدور حول دور السؤال القرآني في إثبات أصل النبوة والذي كان جوهر دليلها هو الإعجاز القرآني، ثم اختصاص النبي الأكرم بالتكامل المطلق، ثم ختمت البحث بأصل المعاد وذكرت الأدلة على إثباته وأهمها ما يشاهد بالحس من آثار الأمم التي أهلكت بذنوبها. هذا وقد ظهرت عدة نتائج من مقالتي وهي كالتالي:

١. يُعتبر السؤال من أهم الأساليب في الاستعمال القرآني وأكثرها في جدال الكافرين والمشرّكين، ولا زال استعماله في الحوار الفكري والعلمي قائماً في الإثبات والنقض؛ لغرض توحيد كلمة أمة التوحيد على التقوي، ورص صفوف المسلمين بوجه تيارات الكفر والغواية.
٢. إنّ التنمية العقيدية بالسؤال القرآني اعتمدت أبسط الأدلة العقلية وأوضح البراهين في تطوير الفكر الإنساني والعقل البشري، والتحرر من الأفكار المسبقة والتقليد الأعمى.
٣. أستخدم القرآن الكريم أسلوب السؤال الإقناعي في سجله العقيدي، وطرح الأسئلة لغرض التعليم والإقناع العقلي بأسلوبه الجدلي، مما يؤكد على أهمية التلاقح بين علوم الفلسفة والدين في تنمية الأسلوب الجدلي وازدهاره.
٤. أتم الحوار القرآني بمنهجية خاصة في استعماله للسؤال العقيدي، فكان المنحى الجدلي يسير بثلاثة سبل استدلالية، الأول هو السؤال الإنكاري وهو الغالب، وغايته نفي وإبطال العقائد الباطلة وتخليّة النفس من برائتها، والثاني هو السؤال التقريري، وغايته التذكير والتنبيه للعقيدة الحقّة وتثبيتها في النفس بالإذعان والاعتراف

الاختياري، والثالث هو سبيل مشترك بين الإنكاري والتقريري، وغايته التأثير النفسي بأسلوبى الوعيد والوعد ترهيباً من العذاب وترغيباً بالنعيم.

٥. إنَّ طبيعة الاستدلال القرآني بالسؤال أتمت بصورة عامة بالبرهنة العقلية الواضحة والإثبات البسيط غير المركب؛ لكي يدركه كلُّ إنسانٍ وبجميع مستويات تفكيره من العامي البسيط إلى العالم، فتتم الحُجَّة البالغة على جميع المكلفين. حيث تناولت الآيات القرآنية ثلاثة مضامين عقيدية وهي أصول العقيدة الإسلامية، فالمضمون الأول هو عقيدة التوحيد حيث جرى الاستدلال على إثباته من خلال استعمال السؤال المجازي بالدلالة على أسماء الذات والصفات والعدل الآلهي، أمَّا عقيدة النبوة فقد تمَّ الاستدلال عليها من خلال الأعجاز القرآني والكمال النبوي وخليفته من بعده، ويأتي مسك الختام لدور المعاد الأخروي وأثره في إثبات التوحيد من خلال ملازمات أسماء الذات وبعض الشواهد الحسية كالآثار الدالة على إهلاك الأمم السابقة.

مصطلحات البحث (الكلمات المفتاحية): السؤال. الاستفهام المجازي. التنمية. الأسلوب الجدلي. الاستدلال العقلي. العقائدي.

المقدمة

الحمد لله بقدر نعمه، والصلاة على خاتم رسله وآله المعصومين ورضي عن أصحابه المنتجبين،

إنَّ الاعتراف بالدور المرجعي للقرآن الكريم وأثره في توحيد هندسة البناء المعرفي يحقق حلَّ جميع الأزمات الفكرية والخلافات العقيدية، فالحلُّ الوحيد هو العودة لقانون القرآن الكريم في معالجة الأزمة الثقافية للأمة الإسلامية، كما أهتم الخطاب الإلهي بعرض جميع المعارف النافعة للبشرية بنحو من التصريح أو التلويح الإشاري، ومن أهم تلك المعارف هي المعرفة الدينية بأصولها وفروعها من عقائد وشرائع وأخلاق، وأولى الجانب العقيدي منها أهمية بالغة، وكانت السمة البارزة في المنهج الاستدلالي لإثباتها هو الدليل العقلي، وأمتطى الخطاب المقدس وسائل كثيرةً لاستدلالاته فمنها الجمل الخبرية ومنها الإنشائية الحقيقية منها والمجازية، ومن أهم تلك الوسائل المستعملة في الحوار القرآني هي وسيلة السؤال المجازي.

ومما تقدّم أجمع لدى الباحث ثلاثة عناصر في بحثه وهي: الاستدلال العقلي، والمعرفة العقيدية، ثم منهج الاستدلال بالسؤال المجازي، ومن هنا يظهر للمتابع أهمية البحث النابعة من أهمية عناصره ومقوماته الثلاث الكافية لجعلها سبباً في اختياري هذا العنوان موضوعاً لبحثي الموسوم بـ ((دور السؤال القرآني في التنمية العقيدية)) وهو عبارة عن دراسة تطبيقية بأسلوب تحليلي لمنهج الاستدلال العقيدي بالسؤال القرآني.

تكمن أهمية البحث عن السؤال القرآني في دوره الأساس في الجدل القرآني مع المخالفين للحق؛ لإحداث التغيير المقصود للرسالة القرآنية والمعبر عنها بالهداية. فالغاية الكبرى للخطاب الإلهي هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور عبر تنمية

القدرة الفكرية وتحريك الطاقة العقلية. والغرض من البحث هو الاستفادة من تلکم المعاني البليغة في حوار أهل الحق؛ لإثبات أصول الدين الإسلامي وما يتعلّق بها من عقائد، وما يستلزمه هذا الحوار من إبداع في التنمية العقيدية وتأثيرها في قلب المخاطب سواء أكان كافراً أم متردداً في إيمانه أم ضعيف الإيمان، فالغرض من منهجية الحوار العلمي هو التنوير والهداية إلى سبيل الحق.

مشكلة البحث

إنّ مشكلة البحث تكمن في التساؤل عن دور السؤال القرآني في التنمية العقيدية، فلم يبحث هذا السؤال في منهجٍ علميٍّ خاصٍّ به. إنّ السؤال -مطلقاً- من أهم وسائل توليد المعرفة والتعلّم البشري، ومن أكثر الظواهر استعمالاً وأقدمها تجذراً في فطرة الانسان، وما يتعلق بالسؤال المجازي فدوره لا يخفى في جدال المتكلمين ومن قبلهم من الحكماء مع المغالطين، فمحور البحث يدور حول تسليط الضوء على المنهج القرآني في استعمال السؤال الجدلي بمعانيه المتعددة وأقسامه المتناسبة مع التنمية العقيدية، ومن هنا جاء البحث عن ماهيته وأقسامه وإثارة النقاش حوله بغية الوصول إلى مناحي استدلالية مقنعه.

أسئلة البحث

السؤال الرئيس: ما دور السؤال القرآني في التنمية العقائدية؟.

الاسئلة الفرعية:

١- ما المراد من السؤال ؟ وما أقسامه وادواته ؟ وما دوره في الاستدلال وتوليد المعرفة؟.

٢- ما أساليب السؤال الاستدلالي القرآني في مجال التنمية العقيدية؟.

- ٣- ما مضامین السؤال العقدي في القرآن الكريم؟ وما أثر السؤال في تنميتها؟
٤- ما أبرز النتائج المترتبة على استعمال النص القرآني لأسلوب منهج السؤال في مجال التنمية العقديّة؟.

أهداف البحث

تتلخص أهداف بحثي في إيجاد الطريقة المثلى للجدل العقدي، وهذه الطريقة بحاجة إلى منهجٍ عامٍ تقوم به وتتقدم نحو التنمية العقديّة من خلال الرؤية القرآنية للوجود وطريقة الحوار مع المخالفين.

معنى السؤال لغةً واصطلاحاً

السؤال في اللغة يعني: الطلب، فسألت العافية يعني: طلبتها، وسأله الشيء، من قوله تعالى: (سأل سائل بعذاب واقع)^١ أي: عن عذابٍ واقع، ورجل سؤلةً، كثير السؤال وتساءلوا سأل بعضهم بعضاً عن أمرٍ ما.^٢
وفي الاصطلاح فيعني: "استدعاء معرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة... فاستدعاء المعرفة جوابه على اللسان، واليد خليفة له بالكتابة أو بالإشارة... والسؤال للمعرفة تارةً يكون بالاستعلام وتارةً للتبكيك وتارةً أخرى لتعريف المسؤول وتنبهه لا ليخبر ويُعلم".^٣

١ سورة المعارج: ١

٢ انظر: محمد بن مكرم، ابن منظور، لسان العرب، ج ١١، ص ٣١٨؛ واحمد بن زكريا، ابن فارس، مجمل اللغة، ج ١، ص ٤٨٢؛ وجار الله، الزمخشري، أساس البلاغة، ص ٢٨١.

٣ الحسين الراغب، الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج ١، ص ٢٥٠؛ واسماعيل حقي الخلوتي، البروسوي، روح البيان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٦٠٢.

ومن خلال ما تقدم يظهر أنّ السؤال لُغَةً يُعطي معنى طلب الشيء والفهم والإيضاح والدعاء والاستفسار ويُطرح على شكل استفهام، وفي الاصطلاح يعني طلب معرفة أو ما يؤدي إليها، وله معنى مجازي هو مدار بحثي في هذا المقال

أقسام الاستفهام

إنّ الاستفهام من أنواع الإنشاء الطلبي ويعني: طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، بإحدى أدوات الاستفهام، وهو نوعان هما:

أحدهما: الاستفهام الحقيقي: وهو الذي ورد على أصل معناه، وهو طلب الفهم ومعرفة المجهول، كما في قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا)¹.

والآخر: الاستفهام البلاغي أو المجازي: هو أحد الأساليب المستخدمة في اللغة العربية من أجل الوصول إلى هدفٍ معيّن، أي: أنّ هذا النوع من الاستفهام لا يقصد به الاستفهام بعينه؛ وإنّما يُراد منه قصدٌ آخر غير الاستفهام؛ كأن يكون لغرض التوبيخ أو التقرير أو ما شابه ذلك. فالغرض منه هو غرضٌ بلاغيّ وليس استفهاماً حقيقياً، ولهذا الاستفهام حضور واسع في القرآن الكريم.

وخروج الاستفهام عن أصل وضعه من الظواهر الأسلوبية التي لفتت أنظار الدارسين والباحثين منذ عهدٍ مبكر، ولم يخل عملٌ من أعمال الرواد من الوقوف عنده وأشاروا إلى أسرارهِ الفنية بعمق.

الاستفهام المجازي في القرآن الكريم (الدلالة والمضامين)

إنَّ الله (جل وعلا) لا يستفهم خلقه عن شيء -فهو العَلام-، وإنَّما يستفهم ليقدر خلقه ويذكرهم أنَّهم قد علموا حقَّ ذلك الشيء، وهذا أسلوب بديع انفرد به الخطاب القرآني. وكما تقدَّم من خروج الاستفهام عن أصل وضعه إلى المعنى المجازي الذي يُفهم من خلال السياق وتركيب الكلام حيث "يُعد الاستفهام من أبرز وأهم الخصائص اللغويَّة التي أمتاز بها الجدل القرآني؛ لأنَّه من طبيعة الجدل فلا يمكن أن يدور جدل بين طرفين خالٍ من الاستفهام"^١.

فالقرآن الكريم حافل بالأساليب الإعجازية، وأغلب آيات الجدل في القرآن الكريم كانت مكيَّة -نزلت قبل الهجرة المباركة- تجادل مشركي قريش ومن تحالف معهم، حيث أنَّ "مع كثرة أنواع السؤال في المكيَّ نجدده كثير الدلالة على الأغراض البلاغية إذ يفيد كثيراً معاني الإنكار والتقرير والطلب والتوبيخ وغير ذلك"،^٢ ومن أهم تلك الأساليب هو استعمال أسلوب الاستفهام المجازي في خصوص الحجاج العقائدي. وقد أحصى بعض الباحثين "ما يزيد عن مائتين وألف سؤال (بالضبط ١٢٦٠) أغلبها أسئلة يسألها الله سبحانه وتعالى لخلقهِ"^٣، وهو دليل على أهمية السؤال المجازي ومكانته في الجدل العقدي. وقد أخصيتُ بالاستقراء التام لآي القرآن الكريم ما ينيف عن (سبعمئة آية)، أُستعمل فيها السؤال المجازي بخصوص ما ورد على لسان الحق وأهل الحق في جدال عقيدي مع الكافرين ومع ضعاف الإيمان كلُّ بحسب حاله ومستواه؛ لغرض الارشاد وتبيين سبل الهداية والصلاح. ورُبَّما يوجد أكثر من سؤالٍ في آيةٍ واحدة، وقد يتكرر

١ يوسف عمر لعساكر، الجدل في القرآن، ص ٣٠٥.

٢ ورده كحيل، السؤال في ضوء القرآن، ص ٤٦.

٣ محمد علي يوسف، أسلوب الاستفهام في القرآن، ص ٤، مقال.

السؤال في مواضع متعددة، وفيها من سحر البيان وروعة النظم البلاغية ما يعجز اللسان عن وصف حلاوته وجمال طلاوته، "وحين يخرج الاستفهام الى المجاز، إنما يؤدي ظاهرة جمالية وبلاغية لا تُعرف في الأسلوب الحقيقي الذي يسأل به المتكلم عن شيء معروف او مشهور... فالأسلوب المجازي يعتمد على السلائق والذوق والسياق والقرائن التي يدور حولها الكلام".^١

ومن وجوه ثراء معاني الاستفهام المجازي هو تنوع أساليبه وتعدد معانيها، حتى اختلف في دلالاته علماء اللغة والبيان؛ مما أدّى الى اختلاف توجهاتهم التفسيرية، ولم يجد الباحث تقسيماً موحداً لأساليب السؤال في كتب اللغة والبيان. وبسبب تعدد الوجوه القرآنية للآيات ذات الأساليب المجازية وعمق دلالتها، ارتأيت أن أصنف أساليب الاستفهام المجازي، وأجمع بين تلك المعاني في ثلاثة أقسام رئيسة تجمع مضامين السؤال المجازي، فكل أصل يتضمن عدّة معانٍ بحسب ما أشار اليه علماء اللغة والتفسير من التداخل الدلالي - محاولة مني لربطها بموضوع التنمية العقائدية والاستفادة منها لتوجيه البحث وتنويعه؛ لأجل حمل مباحثه على الدلالات العميقة المتوخاة من الدعوة القرآنية الحكيمة في الجدل الأحسن وما تقتضي الدعوة من حكمة وموعظة حسنة. ويمكن تقسيم معاني الاستفهام المجازي الى ثلاثة معانٍ رئيسة يضم كل معنى عدداً من الأساليب المناسبة للمعنى الأساس والمرتبطة به، وهي ما يلي:-

الأول هو السؤال الانكاري ومضامينه القرآنية، والثاني هو السؤال التقريري ومضامينه القرآنية، والثالث هو السؤال الترهيبى والترغيبى ومضامينه القرآنية.

١ حسين جمعة، جمالية الخبر والانشاء، ص ١٤١.

وهو تقسيم أشار اليه علماء اللغة والتفسير في مضان أبحاثهم، وفي شواهد تفسيرية جادت بها أعلامهم -كما سيأتي من مباحث في هذا الفصل-، وهذه المعاني التي ذكرت تُعد من أبرز أغراض الاستفهام، وقد فرّع العلماء السؤال أقساماً كثيرة حتى بلغت (٣١) غرضاً، وهذا التقسيم يعمل وفقاً لمنهج جدليّ مبنيّ على أساس تحقيق حالة التخلية من الأفكار الضالة والتحلية بالعقيدة الحقّة، وهو يتناسب مع ما تقدم من أساليب العقلاء والفلاسفة في مجادلة أهل اللغظ والسفسطة، حيث أعتمده الأوائل في طرق الهدم والبناء التهكميّة والاستدراج المنطقي للمخالف بأسنلة إقناعيه؛ لغرض تحريك فكر الضال، وإيقاع المقابل بالتناقض والعجز الفكري،^١ مع اختصاص الجدل القرآني بطريق ثالث تميّز باستعماله الا وهو أسلوب التهيب والترغيب -وعيداً بالعذاب ووعداً بالثواب؛ نظراً لانطواء السؤال على مقدمات تكشف عن فهم عميقٍ لمدلول السؤال ومحور الجدل، وسأجهد من خلاله التعرّف على مقدمات الإنكار من مفاهيم عقلية وأدلة علمية تنفي زعم المقابل وتبطل معتقده، وكذا في السؤال التقريري وما ينطوي عليه من مقدمات علمية وثواب مسلّمة يقرّ بها المقابل. وبناءً على التقسيم أعلاه سأذكر أهم تلك الأساليب العاملة والجامعة للمعنى في أداء تلك المهمة الخطيرة، والتي أسماها بعض العلماء بـ "الفقه الأكبر"، معتمداً في تنويع البحث على المقدار المهم والضروري من الأساليب القرآنية العاملة في التنمية العقيدية، مع اتخاذ منهج الجمع الدلالي بين معاني تلك الأساليب؛ لإظهار عمق المعنى البلاغي للقرآن الكريم وروعة بيانه.

مضامين السؤال القرآني

يمتلك السؤال الجازي في القرآن الكريم روح المناورة وفن التداخل الدلالي المبدع في مجادلة الآخرين جدالاً تصل من خلاله المفاهيم إلى ذهن كلّ مخاطب البسيط والعالم- في أقصر طرق الاستدلال كالبداهة والضرورة، وحواره فيه أبلغ المعاني

١ انظر: يوسف عمر، لعاكر، الجدل في القرآن، ص ٣٤.

المحرّكة لعقل السامع. وأهم تلك المحاور هي الأصول العقيدية الثابتة بإجماع علماء الاسلام، وهي العروة الوثقى لمن آمن بها مجتمعة، والحكم بكفر من أنكر أحد أصولها. وهذه الأصول هي: التوحيد الالهي من جهة الذات والصفات، توحيداً خالصاً من الشرك. ثم النبوة المنبثقة بالوحي الشاهد بكمال النبي ومن ينوبه بالخلافة تكميلاً للرسالة. ثم المعاد وحقيقة الحياة في الآخرة وما فيها من حسابٍ وجزاءٍ ومن نعيمٍ وعقاب، وإجمالها يكون كما يلي:

أولاً- مضمون التوحيد ودلائله في السؤال القرآني

أمتاز السؤال القرآني العقيدي بخطابٍ علميٍّ يستهدف إثارة دافئ العقول، ومن خلال استقراء الآيات المباركة التي أُستعملَ فيها الاستفهام المجازي لإثبات أصل التوحيد، أحصيتُ حدود (٢٨٥) آية، وفي بعضها أكثر من سؤالٍ مجازيٍّ تناولت هذا الأسلوب الجدلي بجزالة وحكمة بالغة. إنَّ الملاحظ من الأسلوب الاستدلالي التركيز في إثبات التوحيد على نفي الشريك والأغيار عن الذات المقدسة وصفاتها. ومن وحيِّ الضرورة العقلية والأدلة القطعية كدليل العلية وأدلة برهانية يتم من خلالها الاستدلال على وجود الذات المقدسة. وأما هذا الاستدلال القرآني التنبؤي على إثبات حقيقة التوحيد من خلال السؤال المجازي إنّما يتم بحسب وجوب وإمكان تصور ثبوت الصفات للذات المقدسة ويكون من جهتين هما: الأولى من جهة إثبات الصفات الذاتية

١ أستاذ علماء الكلام على إثبات وجود الله تعالى بعدة أدلة عقلية منها: دلالة الأثر على المؤثر، ودليل حدوث العالم، ودليل النظم والتدبير، وبرهان الحركة وغيرها من الأدلة العقلية والعلمية المفصلة في الكتب الكلامية. أنظر: الشيخ جعفر، السبحاني، محاضرات في الالهيات، ص ٨-٣٠؛ وعرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية، ص ١٦٥-٢٠٣؛ وغيرها .

الواجبة، والثانية من جهة إثبات الصفات الفعلية الممكنة، وبإضافة جهة ثالثة وهي صفة العدل الالهي (صفة لأسماء الأفعال) باعتبارها مطلباً خاصاً، وفي اللغة يكون اسم الصفة هو كلُّ اسمٍ يدلُّ على صفة شيءٍ من المعاني حيثُ يُحمل عليه الموصوف بصيغٍ عديدة،^١ وقد خصص العلماء لكلِّ جهةٍ من الصفات أسماء تتحلى بها،^٢ وكما ورد في كلماتهم ما نصه: "أعلم أنَّ الأسماء تنقسم في نوع من الأقسام إلى أسماء الذات والصفات والأفعال، وإن كان كلها في وجه أسماء الذات، ولكن باعتبار ظهور الذات فيها تُسمَّى أسماء الذات، وبظهور الصفات فيها تسمى أسماء الصفات، وبظهور الأفعال فيها تُسمَّى أسماء الفعل"^٣، ومما تقدّم يكون المبحث موزعاً بالتفصيل على ثلاثة أقسام هي: دليل أسماء الذات على التوحيد ودليل أسماء الأفعال والثالث هو دليل العدل الالهي.

ويبدأ التحقيق عن الاسم الخاص للمولى (تعالى) وهو لفظ الجلالة (الله)، حيث تمهد الآية المباركة باستعمال السؤال المجازي في إثبات التوحيد الخالص بنفي السمي بلفظ الجلالة عن غير الله (تعالى)، حيث يقول تعالى: (زَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)^٤، فالسمي تعني: كلُّ نظيرٍ يستحق أن يُسمى باسمه أي: "هل يُسمَّى بالله غيره، وهو علّم يدلُّ على الذات المقدسة الموصوفة بجميع الكمالات التي هي مبدأ لجميع الموجودات، إذ لا يجب في كل اسم أن يكون مشتقاً، ولا لزم التسلسل"^٥، ثم يتدرج الجدال صعوداً ليصل الى مرحلة إثبات التوحيد من خلال دليلية أسماء الصفات الكمالية، إنَّ الخطاب القرآني حافل بشواهد استدلالية

١ انظر: الشيخ مصطفی، الغلابي، جامع الدروس العربية، ج ١، ص ٩٧-٩٨

٢ انظر: مصطفی، الخميني، تفسير القرآن الكريم، ج ١، ص ٢٣٨

٣ حيدر، الآملی، تفسير المحيط الاعظم، ج ١، ص ٩٨

٤ سورة مريم: ٦٥

٥ جمال الدين أحمد بن فهد، الحلي، المقتصر من شرح المختصر، ص ٨.

كثيرة من توسط صفة الخالقية في إثبات التوحيد، فاستعمال السؤال المجازي بمضامينه يؤكد اعتماد القرآن الكريم منهجاً خاصاً في الاستدلال العقلي البسيط والواضح على إثبات التوحيد عن طريق إثبات صفة الخالقية كما قال تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)^١، فالإنكار بنفي المساواة بـ(أفمن) يتوجه لكل عاقل يتوهم التساوي أو قياس ما لله (تعالى) الى ما لغيره من نفس صفات الخلق ولوازمه من النعم، فمن ثبت له إيجاد الخلق والنعم وابتدعها بذاته اولى بالعبادة واحق بها ممن لا يملك الوجود بذاته من الأوثان المصنوعة فضلاً عن أن يدعى لها قدرة الخلق،^٢ وهو تقرير لدليل برهان التمانع العقلي.

وتعتبر صفة العدل من الصفات الكمالية الايجابية للذات المقدسة نظير صفة العلم والقدرة، أو على الأقل نظير الخالقية والرازقية والتدبير، وأن الغاية من بحث إثبات العدل للمولى (تعالى) هي إيجاد رابطة محكمة بالضمير والشعور تصفي الطمأنينة وعلاقة الحب والود بين العبد ومولاه، وبالتالي فإن أي وجود يأخذ ما يستحقه من كمال الوجود،^٣ ومن هذه الآيات التي استعملت السؤال المجازي بدلالة العدل على التوحيد من خلال إثبات الكمال في حكمه من قوله تعالى: (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)^٤ أي: "إذا كنتم لا تتيقنون كذب هذا الكلام، فعلى الأقل ليس لديكم دليل على إثباته، فلماذا

١ سورة النحل: ١٧.

٢ انظر، محمد حسين، الطباطبائي، تفسير الميزان، ج ١٢، ص ٢١٩.

٣ انظر: مرتضى، المطهرى، العدل الآلهى، ص ٥٩-٧٤.

٤ سورة الأعراف: ٢٨.

تتهمون الله وتقولون على الله ما لا تعلمون؟!^١ فالسؤال الإنكاري المتضمن للتوبيخ في (أقولون) هو إنكار لإضافتهم الأمر بالقيح إليه (سبحانه) والإنكار شهادة عليهم بالجهل والحوار مع المشركين فيه استدلال بالنفي وإنكار ادّعائهم أمر الله (تعالى)، وفيه توبيخ لتقليد اسلافهم بالسوء والفحشاء؛ لأنّه (سبحانه) عدلٌ واحكامه موافقة لكمال الانسان وسعادته، والفواحش مثار نفرة للنفوس الراقية، وتأکید النفي ورد في آية تردفها (قل أمر ربي بالقسط)، أي: بالعدل، والتكذيب كان كبروياً لا بجزئية اتباعهم سيرة سلفهم، فكلُّ تقليدٍ أعمى باطل وكل قول بلا علم محال.^٢

ثانياً- مضمون النبوة ودلائله في السؤال القرآني

أن أكبر دلالة على إثبات النبوة هو الاعجاز القرآني، ومن هذه الدلالة المستعملة في الخطاب القرآني باستعمال السؤال المجازي يمكن الكشف عن البرهان العقلي في إثبات النبوة بالإضافة الى بيان مؤهلات الكمال العقلي والاخلاقي لشخص النبي الاكرم (صلى الله عليه وآله)، مع الاستدلال على ضرورة أن يخلفه شخص له مثل مؤهلاته؛ لضمان استمرار مسيرة رسالة التوحيد جيلاً بعد جيل بخطوات واعدة في هداية البشرية، وإن الطابع الغالب للاستدلال القرآني في إثبات النبوة هو الأسلوب العقلي بالبرهان البسيط، حيث يعتمد على القضايا الأولية كالبداية والثابت المسلّم كأساس للإثبات

١ ناصر مكارم، الشيرازی، تفسير الامثل، ج ٥، ص ١٤.

٢ انظر: محمد بن الطاهر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٨، ق ٢، ص ٨٢-٨٤؛ والفضل بن الحسن، الطبرسي، جوامع الجامع، ج ١، ص ٤٥٠.

ودفع الشبهات،^١ وربما استعمل الخطاب الالهي الأدلة النقلية من الكتب السماوية الغير محرقة وألزمهم بمضمونها، يجد المتتبع أنّ العقلاء أول من يؤمن برسالة السماء ويؤيد الانبياء، اما الجهلة والمتعصبة فهم أول المكذبين والمعترضين بدعاوى خالية من الحجة والبرهان، كما قال تعالى: (أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ..)^٢ فالسؤال في (أكان) إنكاري وفيه تضمن لمعنى التعجب من تعجبهم، وفيه دلالة التكذيب لدعوى استحالة الايحاء إلى بشر منهم، مع إشعار لعدم توقع هذا التعجب منهم،^٣ وأنه موقف غير عقلائي؛ وذلك لانحصار امكان الايحاء للبشر دون سائر الموجودات من الملائكة والجن؛ لأنها موجودات لطيفة وغير مرئية ولو قُدِرَ وبُعِثَ للبشر لزم أن تتمثل بصورتهم البشرية، وكيف يتعجبوا وقد بعث الله (تعالى) أنبياء من البشر على مر التاريخ؟!^٤ فتعجبهم مردود عقلاً.

ثالثاً- مضمون المعاد ودلائله في السؤال القرآني

١ انظر: محمد بن الحسن، الطوسي، التبيان، ج ٨، ص ٥١٠؛ وابن ادریس، الحلی، المنتخب من تفسير القرآن، ج ٢، ص ٢٢٠؛ وفتح الله، الكاشاني، زبدة التفاسير، ج ١، ص ٢٧١؛ وفخر الدين، الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٢٢، ص ١٧٩؛ وابو حيان، الاندلسي، تفسير البحر المحیط، ج ٢، ص ٣٩٢.

٢ سورة يونس: ٢

٣ انظر: محمد بن الطاهر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١١، ص ٨٣-٨٤؛ ومحمد حسين، الطباطبائي، الميزان، ج ١٠، ص ٨.

٤ انظر: محمد بن الحسن، الطوسي، التبيان، ج ٥، ص ٣٣٢؛ وفخر الدين، الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٧،

إنّ اثبات حقيقة المعاد كبروياً يعود في أصله الى إثبات التوحيد بأقسامه والنبوة بدلائلها، وربما أُستدلّ عليه صغروباً بالآثار الحسيّة من إهلاك الأمم السابقة لمن يُنكر الغيب ولا يؤمن إلّا بما يري. حيث يجد الباحث تشابهاً في طريقة الاستدلال الإثباتي للمعاد باتباع المنهج العقلي للبرهنة على حقيقته، وهو منهج استدلالي بسيط تُناغم حججه الدامغة عقول عوام الناس؛ ليرشداهم بدلالته الى نور الغريزة الفطريّة ويثير دفائن معارفهم. فشواهد الاستعمال القرآني للسؤال العقيدي متظافرة في دعوتها لتعقل والتدبر في أمر مصير البشريّة كما جاء بيانه في قوله تعالى: (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ)^١ وفيها تعريض لمن أنكر المعاد، فحري به أن يتفهم مغزي هذا القياس الخفي من تعلّق قدرة الله (تعالى) بجعل الشباب شبيهاً فهو القادر على أن يعيد الموتى الى الحياة، وهذه الانتكاسة تشعر بقرب الأجل فلا بد من تعقل معناه.^٢

يكون الاستدلال على مبدأ المعاد بمثابة النتيجة لمقدمات إثبات التوحيد والنبوة بما تنطوي عليها من مباحث متلازمة لأصول العقيدة الاسلاميّة، بالإضافة الى استعمال الحقائق الوجدانية المرتكزة في العقول كالأثار المشهورة الدالّة على إهلاك الأمم السابقة بأمر القويّ الجبار (جل جلاله)، وإنّ حتميّة الموت لا يختلف عليها اثنان ويبقى التفكير في مصير الإنسان وماهيّة العالم ما بعد الموت أمراً ضروريّ المعرفة.

١ سورة يس: ٦٨.

٢ انظر: محمد بن الطاهر، ابن عاشور، مصدر سابق، ج ٢٣، ص ٥٣-٥٥.

قائمة المصادر

• القرآن الكريم

١. أحمد بن زكريا، ابن فارس، مجمل اللغة، طبعة ٢ (بيروت-١٤٠٦هـ).
٢. ابن ادريس، الحلبي، المنتخب من تفسير القرآن، طبعة ١ (قم-١٤٠٩هـ).
٣. أبو حيان، الاندلسي، تفسير البحر المحيط، طبعة ١ (بيروت-١٤٢٠هـ).
٤. إسماعيل حقّي الخلوّتي، البروسوي، تفسير روح البيان، نسخة الكترونية-١٨٣٩م.
٥. جار الله، الزمخشري، أساس البلاغة، طبعة ١ (الرياض-١٤٢٣هـ).
٦. جمال الدين أحمد بن فهد، الحلبي، المختصر من شرح المختصر، طبعة ١ (قم-١٤١٠هـ).
٧. الحسين الراغب، الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن، طبعة ١ (بيروت-١٤١٢هـ).
٨. حيدر، الأملي، تفسير المحيط الاعظم، ط ٣ (قم-١٤٢٨هـ).
٩. حسين جمعة، جمالية الخبر والانشاء، ط (دمشق-٢٠٠٣م).
١٠. الشيخ جعفر، السبحاني، محاضرات في الالهيات، طبعة ١ (قم-بلا).
١١. الشيخ مصطفى، الغلابيني، جامع الدروس العربية، (ط٦-بيروت).
١٢. عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد الاسلامية (ط١-أسد بغداد).

١٣. فتح الله، الکاشانی، زبدة التفاسیر (ط٣-طهران).
١٤. فخر الدین، الرازی، مفاتیح الغیب (ط١-بیروت).
١٥. الفضل بن الحسن، الطبرسی، جوامع الجامع (ط٢-بیروت)،
١٦. محمد بن الحسن، الطوسی، التبیان (ط بیروت-بلا)
١٧. محمد بن الطاهر، ابن عاشور، التحریر والتنویر (ط تونس-١٩٨٤م).
١٨. محمد بن مکرم، ابن منظور، لسان العرب (ط قم-١٤٠٥هـ)
١٩. محمد حسین، الطباطبائی، تفسیر المیزان (ط١-بیروت)،
٢٠. محمد علی یوسف، أسلوب الاستفهام فی القرآن، طبعة ١ (القاهرة-١٩٨٩م).
٢١. مرتضی، المطهری، العدل الالهي (ط بیروت-بلا)،
٢٢. مصطفی، الخميني، تفسیر القرآن الکریم (ط١-قم)
٢٣. ناصر مکارم، الشیرازی، تفسیر الامثل (ط١-قم)،
٢٤. ورده کحیل، السؤال فی ضوء القرآن (رسالة ماستر-غزة)
٢٥. یوسف عمر لعساكر، الجدل فی القرآن (رسالة ماستر-الجزائر)